بنو النضير

مِنْ أين أقبلتَ يا عمرو؟.. وما ذلك الذي يَتَخالجُ بين عينيك؟.. لَيُخَيَّلُ إليَّ أنك فعلتَ عظيماً، وأنك تحملُ بين طيَّاتِ صدركَ شيئاً كبيراً!!

قال عمرو بن أمية الضَّمْريُّ فاتكُ الجاهلية وفارسُ الإسلام: أجل! لقد أصبتَ ما في نفسي ولم تُبْعِدْ، صادفتُ في طريقي إلى المدينة غِرَّة[1] من رجلين من بني عامر فقتلتهما، وَرَوَّيتُ الثرى بدمائهمَا، ولعلي أكونُ قد أطفأت وَقْدَة غيظٍ تتسعَّرُ في صدور المسلمين، مما أصاب فينا بنو عامر يومَ بئر مَعُونة[2]!

قال محدِّثه: يا بؤسَ لما صنعْتَ! ويا خرقَ ما رأيتَ! لقد فعلتَ شرًّا من حيث حسبتَ أنك أردتَ الخير؛ وركبتَ مركباً حراماً من حيث أردتَ الثأر؛ إنك بما فعلت قد أوطأتَ المسلمين العَشْوة[3]، وأرَدْتهم على الحسَكَ[4] والسَّعْدان؛ ذانك العامريان اللذان قتلتَهما، وحسبتَ أنك أدركتَ الثأر فيهما، إنْ هُما إلاّ رَجُلاَن معهما من رسول الله عَهدٌ وجِوَار، ولهما حُرْمة وذِمَام. انطلقْ إليه تجِدْ عنده الخبر اليقين.

وأدرك عَمْرو أنه قد ضلَّ فيما أراد، وأنه ارتكب خطأ فيما فعل: فخاف عاقبةَ أمْرِه، وذهب إلى رسول الله ﷺ خائفاً يترقَّب.

قال: يا رسول الله؛ لقد قتلتُ العامرّيين اللذين صادفاني في طريقي إلى المدينة، وحسبتُ أني أصبتُ فيهما من بني عامر ثَأراً. وما نفَضَ عَلَى الرسول هذا الخبر حتى رآه قد تربَّد وجْهُه، وانعقدت سحابةٌ من الهمّ بين عينيه، وقال: «**لقد قتَلتَ قتِيلينِ لأدِينّهما**»[5].

---

(١) الغِرة: غفلة في اليقظة.

(٢) بئر معونة: هي بين جبال في طريق المصعد من المدينة إلى مكة.

(٣) العَشْوَة: ركوب الأمر على غير بيان.

(٤) الحَسَك: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل ومنه: حسك السعدان.

(٥) أدينهما: أدفع ديتهما.

ولكن رسول الله في ضَنْك من المال، وخَصاصة[١] من العَيش، فماذا يفعل! ودِيةُ القتيل عاجلةٌ لا تحتمل النسيئة[٢]، والدمُ الفائر لا ينفَعُ تسكينه التَّسويف!

لِيَذهَبْ إلى بني النَّضير، إنهم حلفاؤه ومعاهِدُوه، ولقد عقد معهم يوم حضر إلى المدينة عَقْداً، ألا يحارِبُوه، وألا يُؤذيهم ولا يُؤذوه، وإنهم بعد ذلك حلفاء بني عامر، فليس ما يمنع أن يستعينَ بهم على دَفَع دِيَة القتيلين. ودعا رسولُ الله ﷺ نفراً من صحابته، وذهُبوا حيث يقيمُ بنو النَّضير في أطرافِ المدينة.

* * *

وقال حُيـيُّ بن أخطب زَعيمُ بني النَّضِير: ذلك محمدٌ مُقبِلٌ في بعض صَحْبِه لأمر مَا قدم، ولأمرِ ما وَطِئَتْ قَدمَاه هذه الديار. لننهضْ جميعاً للقائه، ولنتعرّف ما وراء قُدومه.

وقاموا إليه هاشّين باشّين، وحَيَّوْه معظِّمين! وإنّ قلوبهم لتَنْحني على المكر والكَيْد، وإنَّ أنفاسهم لتصّاعد بالغَيْظِ والحَنق.

قال حُيـيّ: خيرٌ ما جاء بك يا محمد! لقيتَ أهلاً! ومكاناً سهلاً. قال الرسول: **«لقد قتَل واحدٌ من المسلمين اثنين من بني عامر، حَسِب أنه أصاب فيهما عدُوًّا، وأدرك ثأراً، ولكنهما كانا معنا في حِلْف، ولهما ذِمَام، وقد جئناكم نستعينُ بمالِكم على دِيَة هذين القتيلين، بما بيننا من حِلْف وعَهْد»**.

* * *

قال حُيـيّ بن أخطب: لكَ ما تريد ما محمد، وهَوْناً ما أردت! استرخْ إلى هذا المكان، وانظِرنا قليلاً، حتى نجمعَ المال، ونأتي بما تُريد.

وجلس رسول الله ﷺ إلى جِدَار، وجلس معه صَحْبُه انتظاراً لما وُعِدوا، أما هُمْ فسرعان ما ألَّف الشرُّ بين جموعهم داخل الدّور، وسرعان ما أقبل بعضُهم على بعض يتذَامرون[٣] ويتآمَرُونَ: كيف لا يفتِكون بمحمد، وهو بين أظْهُرهم، حاضِرٌ في

(١) الخصاصة: الفقر والحاجة وسوء الحال.
(٢) النسيئة: التأخير، يقال: باعه بنسيئة: بتأخير.
(٣) تذامروا: حَضَّ بعضهم بعضاً على القتال.

رِحَابهم؟ ها هو ذا قد مكن لهم من نفسه، وهيَّأ لهم الفتكَ به، ليس معه منْ يَـنْصرُه، ولا يوجد حَوْله من يَـعْصِمُه، إلا نَـفَراً ضعافاً، عُـزْلاً من السلاح. قالوا: لئن قتلتموه لتستريحن وتستريح العرب من هَمٍّ ناصب، وبلاء واقع، ولئن أفلت منكم اليوم فلن تظهروا عليه أبداً... مَن منكم ينتدِب لقْتله، ويتطوَّع للتنكيل به؟

قال عمرو بن جحَاش: أنا بذلك زعيم، دعُوني أقتله، وأشفي غَيْظَكم منه؛ وانطلق يُعدُّ صخرةً يَرْضَخُه[1] بها. وتسلق الجدار، وأعدَّ الحجرَ، ولكنه نظر فإذا برسول الله ﷺ انصرف، وخَذَلَ الله الكَيْدَ والمكْرَ.

* * *

وعاد رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فأعلن فيهم أنَّ بني النضير قد غدَرُوا ونكَـثُوا، وأنهم قد أرادوا له قَـتْلاً وبه شرًّا، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد أوْحى إليه بسوء نيتهم وخُبْثِ دخيلتهم، لنالَهُ منهم شرٌّ وكيد، والمسلمون بعد ذلك في حِلّ من عهدهم، ولا جُنَاح عليهم في حربهم؛ إذا لم يعد أمانٌ لجوارهم، ولا عهد لميثاقهم.

وانتدب ﷺ محمد بن سلمة، لينذرَهم الخروجَ من ديارهم، والجلاءَ عن أوطانهم، وإلا عُوجِلوا بالحرب، ووقع عليهم النكال.

وذهب إليهم محمد بن سلمة، ونادى فيهم: يا بني النضير، قد علمنا مَكْركم وغدْرَكم، وأطلع الله رسوله على مؤامرتكم، وقد قدرنا مواثيقكم وأيمانكم، فلا بقاء لكم بعد اليوم في ديارنا، ولا نأمنكم على رجالنا، فارحَلُوا عن هذه الديار سالمين بأنفسكم، موفورين في حياتكم، ولكم أُسوةٌ في إخوانكم بني قَـيْـنُـقَاع.

وأدرك بنو النَّضير حَرَج موقفهم، وعاقبة فعلتهم، وكادوا يُصِيخُون للقول، ويستمعون للنذير، ويتهيؤون للخروج، لولا أن قيَّض الله لهم عبد اللَّه ابن أبيّ الذي قال لهم: لا تخرجوا من دياركم، وإيّاكم والجلاء عن أوطانكم وإننا سنكُونُ في حزبكُم، ومن أنصاركم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

---

(١) رضخ بالشيء الأرض: ضربه بها. رضخ الشيء اليابس: رضَّه وكسره.

(٢) سورة: الحشر، الآية: ١١.

وعلم رسولُ الله ﷺ كفرهم وعنادهم، فتهيَّأ لحربهم، ونهض لقتالهم، وحاصرهم ليالي، فلم يفتحوا له باباً، ولم يُلْقُوا إليه يداً، ولكنهم ما رأوا المسلمين يقطعون النخيل ويتهيَّأون للغارة حتى خارَ عودهم، وانخَذَلت قواهم، والتَجَأوا إلى الرسول يسألونه أن يُجْليهم، ويكُفَّ عن دمائهم، على ألاّ يأخذوا من أموالهم إلا ما حَمَلت جِمَالهم.

وأجابهم رسول الله ﷺ إلى طلبهم، واحتملوا إثم غَدْرهم ومكرهم، فتركُوا الديارَ ورحَلُوا عن الأوطان: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[1] ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟[2] ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾[3].

---

(١) سورة: الفتح، الآية: ١٠.
(٢) شاقوا: خالفوا.
(٣) سورة: الحشر، الآيتان: ٣ و٤.